



عبد الوهاب البياتي

شاعر الفقر والثورة



كتب يقول في (تجربتي الشعرية):

- لقد غمرت الرؤية المتمردة كل المواضيع الشعرية التي كتبت فيها..
فالموت المجاني الذي يضرب ضحيته دونما سبب مفهوم.. ذلك الموت الذي
كان أشد بروزاً في ديواني (أباريق مهشمة) كان لا بد من فهمه وكان فهمه
هو التمرد عليه.. وفي (المجد للأطفال والزيتون).. و(أشعار في المنفى)..
كان هناك الموت من أجل الحرية.. أما الموت بالمجان فلم تعد له قيمة قط..
مهموم إذن بالوجود والعدم هذا الشاعر الذي ظل طوال حياته مدافعاً
عن الإنسان في تحولاته المختلفة.. وهذه التحولات لا بد أن تنبع من دوره
البطولي في الحياة.

لقد ولد الشاعر العراقي عبد الوهاب البياتي عام 1926 بمنطقة
باب الشيخ ببغداد.. وتعلم في مدرسة باب الشيخ الابتدائية ثم في ثانوية
الرصافة والإعدادية المركزية.

ويلتحق بدار المعلمين العالية عام 1944 ويكتشف حقيقة المدينة -
بغداد - ثم تفتحت أمامه أبواب الثقافة على اتساعها.. وعرف تولستوى
وتشيخوف وديستوفسكى.. وعدداً من كتاب الغرب مثل بيرون وشيلي
وبودلير وكيثس ورامبو وفكتور هوجو.



ومن خلال صحبة البياتي مع السياب وبلند الحيدري.. بدأت تتبلور عنده مهمة الشاعر والأديب.. وهو البحث عن قيم الأدب والفن والحياة.. لقد كان مهموماً بالبسطاء والفقراء.. وتغيير الواقع الاجتماعى.. فكانت الثورة قاسماً في كل شعره.. ومن ثم فهو دائم البحث عن مفهوم البطل الأسطورى.. في مجالات الحياة المختلفة.. وهذا البطل النموذج يحمل في قلبه التمرد لأنه عانى محنة الوجود الحقيقية..

وهكذا جاءت تجربته الشعرية ملتزمة بالواقع.. وبالتأمل العميق.. وقد أصدر البياتي عدد كبير من الأعمال الشعرية بدأها عام 1950 بديوانه (ملائكة وشياطين) ثم تتوالى دواوينه: أباريق مهشمة (1954).. والذي على أثره فصل من وظيفته مدرساً.. لبدأ رحلته الطويلة من الغرب إلى الشرق.. فانتقل إلى دمشق.. ثم مصر عام 1956.. ثم دمشق مرة أخرى ومنها إلى فيينا وموسكو ليعود إلى بغداد عام 1958 عندما قامت الثورة في العراق.. فكتب (رسالة إلى ناظم حكمت) و(المجد للأطفال والزيتون) و(أشعار في المنفى).

ثم يرحل البياتي مرة أخرى إلى موسكو (1959-1964).. ويصدر ديوانه (النار والكلمات) و(محاكمة في نيسابور) وهي مسرحية شعرية ثم (سفر الفقر والثورة).

ويعود إلى القاهرة (1964-1971) وتتوطد علاقته بالثقافة المصرية ومثقفها.

ويظل البياتي متنقلاً بين القاهرة وموسكو وأسبانيا.. وبعض البلاد العربية حتى رحل عن الحياة في عام 1999 ولسان حاله يقول:



بحثت من حان إلى حان

ومن منفى إلى منفى

عن الوجه الذى يحمله

سارق نار الشعر

عن معابد الآلهة الإنسان

عن أميرة المنفى

التي كنا وراء شعرها الأحمر

في مدينة الطفولة

رحلت: قال: فمن سيحرس الأنهار

في عرس نهار الموت

وحينما نطوف مع البياتي في رحلته الطويلة فنحن أمام (مسافر بلا
حقائب) حيث لا يضع لنفسه خرائط السفر.. فربما خرج وعاد في الوقت
نفسه وربما خرج بلا عودة.. ويعبر عن ذلك بقوله:

من لا مكان

لا وجه لا تاريخ لي.. من لا مكان

مستنقع التاريخ والأرض الحزينة

والرجال..

عبر التلال



وأنا وآلاف السنين

متثائب ضجرٌ.. حزين

من لا مكان

تحت السماء

وأسير لا ألوى على شئ

وآلاف السنين

لا شئ ينتظر المسافر غير حاضره الحزين

لكن رحلته تلك كانت رحلة مقيدة.. فلا يمر في مكان إلا بعد أن
يتلقى ألف سؤال عن موطنه ووجهته.. وحتى إذا سمح له سرعان ما يشعر
أنه دخل سجنًا مراقبًا في كل حين.. يقول في قصيدته (السجن المجهول):

عبر باب السجن عبر الظلمات

كوخنا يلمع في السهل.. وموتى.. والنجوم

وقبور القرية البيضاء.. والسور القديم

وقيودى وهواها

وطواحين الهواء

وبطاقات البريد

يا رفاقي في الطريق

عبر باب السجن غنوا.. يا رفاق



لم يزل عالمنا يحفل بالخير.. وبالحب العميق

ترى أى غناء يمكن أن يطلقه المحكوم عليه بالسجن أو النفى وهو يقف
على باب هذا التيه.. أهو أنين القلب.. أم فرح المقتحم.. أم نزوة العابث.

إنه الصمود.. هذا المعنى الذى يحمل الصبر والتحمل والمغامرة جميعاً
ولهذا يصرخ البياقي فى قصيدته (المجد للأطفال والزيتون) قائلاً:

المجد للشهداء والأحياء من شعبي

وللمتمزقين الصامدين

المجد للأطفال فى ليل العذاب

وفى الخيام

المجد للزيتون فى أرض السلام

وللعصافير الصغيرة وهى تبحث فى تراب

حقلى.. وللجيش المرباط فى حدود

وطنى الكبير

- جيش العروبة والخلاص -

المجد للشعراء والكتاب أحباب الحياة

الخائضين اليوم معركة المصير

والضارين يد الطغاة

تلك إذن الفئات الصامدة التى تكتب التاريخ بنضالها وآمالها ودمائها..



هو إذن يرفض الفئات الأخرى المستكينة التى تلهو فى الحياة دون أن
تتذوق طعم النضال من أجل عيشة كريمة.. يرفض الشعراء المنافقين..
والكتاب المرائين.. والمستسلمين للطغاة والحكام الفاسدين.

ولقد كان البياتي فى طليعة المنفيين من أجل الحرية.. لكنه كان دائما
يواجه بنموذج (المخبر) أو (الجاسوس) أو (المنافق) للسلطة.. وكل هؤلاء
يراهم فى صورة كاريكاتورية طريفة يقول فيها:

السيد البرميل

قفاه بطنه.. وبطنه قفاه

ذرب اللسان

يحفظ شعر المتنبي

ويقول الشعر أحيانا بلا أوزان

لكنه يخطئ فى الإملاء والإعراب

يعيد ما يقوله.. أو قاله الإمام

فى خطبة الجمعة أو فى مأتم يقام

يتقن فن الكذب والتزوير فى الأحكام

يركب كل موجة

لكنه يسقط قبل كل شاطئ الأمان

ويظل البياتي بريشته يرسم ملامح هذا (المخبر) وسلوكه وعلاقاته
بالغير.. وبأسياده الطغاة.. حتى ينهى قصيدته هكذا:



ويتهى كما انتهى اللصوص والسطار

عبدا إلى أسياده

وخادما للبيع والإيجار

ولا ينسى البياقي في متاهة نفيه وتشرده هذا الوطن الذى عاش فيه
سنوات عمره الأولى وشبابه.. فيغنى له:

بغداد برحنا الهوى

لكن حراس الحدود

يقفون بالمرصاد

حراس الحدود

يا من أغنيها فتسألنى لماذا لا أعود؟

لم تسألينى.. والليالى السود دونك والسدود

ثم يكمل صورته فى قصيدة أخرى (القتلة) فيقول:

ها أنت.. هذا أنا

ماذا سيجدى السنا؟

من بعد أن سمموا

فى حقدهم خبزنا

بحيرة من دم

تفصل ما بيننا



وليلهم ليلنا
يخنق إصباحنا
وكلبهم فى المدى
ينبح أمواتنا
حبيتى أحرقوا
بالأمس أشعارنا
حبيتى شوها
بالصمت تاريخنا
حبيتى موتوا
بالسل أطفالنا
لا شمس.. لا نسمة
تطرق أبوابنا

تلك هى الأسباب الواقعية التى جعلت البياتي لا يطيق الاستسلام
داخل وطنه الصغير.. ويظل يحاسب على خطواته وكلماته وأشعاره.. ويظل
مهتدا فى أسرته وأطفاله.. فليكن النفي هو الخلاص له من كل هذه
الآلام.. ويرفع شعار الكلمة فى شموخ فى قصيدته (كلمات لا تموت)
فيقول:

كلماتى لن تهرم
كلماتى لن تهزم



كلماتى لن تصداً

كلماتى فى المرفأ

تنتظر الإبحار

يا قلق الأسفار

هبنى قيثاره

هبنى نواره

فأنا أنتظر المد لأرحل

هو إذن راحل دائماً.. وهو يرى فى الرحيل الدائم معرفة أكثر.. وبعداً
أكثر عن الحصار والموت.. وقرباً أكثر من أحلامه وطموحاته.. حتى لو
كان القلق هو الهاجس الدائم فى أسفاره.
والبياتي وجد فى الشعر نفسه خلاصه.. وفى الكلمات دربه الذى لا ينتهى
إلا بموته.

أيها الحرف الذى علمنى حب الحياة

أيها الحرف الإله

آه.. لا تطفى مصابيحك.. آه

كل ما أكتبه محض صلاة

لك.. للعالم..

ما أكتبه محض صلاة

وسلاح فى يدي ضد السلاطين



وأحقاد الغزاة

الحرف هنا هو الذى يمنحه الحياة والاطمئنان.. إنه صلاة.. والصلاة
تريح القلب والجسد معا.. والحرف أيضا له وجه آخر فهو سلاح لا يفل
فى وجه السلاطين والطغاة والغزاة.

ولأن الحرف متصل بكل ما يكتب.. فهو يرفض دور (الصحف
الصفراء) التى تزيف كل شئ:

الصحف الصفراء

توزع الألقاب

تلثم أيدي القاتلين

تمسح الأعتاب

تمنح أشباه الرجال العور والأذنان

صكوك غفران بلا حساب

ويتنبأ البياتي لمثل هؤلاء المنافقين المزيفين بمصير محتوم..

ففى غد

سيسدل الستار

ويسقط الممثلون فى الوحول

تحت سقف المسرح المنهار

ويسقط الجميع.. ويسقط هو أيضاً عام 1999.. لكن سقوطه كان
واقفا كالأشجار فى شموخ وعزة وصمود.